موقف النخب التونسيّة
من انتفاضة تالة والقصرين سنة 1906

د. فوزي السباعي
كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بصفاقس
مخبر LERIC

كتب الكثير حول انتفاضة تالة والقصرين بمقاربات مختلفة وفي سياقات متنوعة، وقد يوحي ذلك أنّ الموضوع أصبح مستهلكا لا يكاد يغري حتّى المولعين بعودة الحدث والتاريخ الحدثي إلى الواجهة الاستوغرافية، وهو ادّعاء لا يستقيم مع المنطق العلمي لأنّ كتابة التاريخ ورشة مفتوحة ومتجدّدة على الدوام. واهتمّ الأكاديميون التونسيون أيضا بتاريخ النخب والحركات الإصلاحية، ولكنّ الدراسات التي تربط بين المسألتين تظلّ محدودة ([1]).

سنحاول في هذا البحث الاهتمام بصنف محدّد من النخب، المتعدّدة من حيث جوهرها، وهو صنف النخب الحضرية، وهذه مفارقة أخرى لأنّ الانتفاضة فلّاحيّة وقعت في فضاء ريفي طرفي هامشي وتقليدي. ولا يتعلّق الأمر فقط بالنخبة التي انتظمت، بالتزامن تقريبا مع وقوع الانتفاضة، في إطار ما عرف باسم "حركة الشباب التونسي"، وإنّما بنخب أوسع وأقّل تجانسا تضمّ جلّ الناشطين داخل المؤسّسات الثقافية، ولاسيّما الحاملين منهم لمشروع إصلاحي من صادقيين وزيتونيين مستنيرين.

([1]) نذكر من بين الذين خصّصوا جانبا من دراساتهم للنخب العصرية في علاقة بالحركات الاجتماعية الأساتذة توفيق العيّادي وعلي الزيدي وخالد قزمير، وخصوصا الأستاذ الهادي التيمومي الذي أشار في توطئة كتابه حول انتفاضة تالة والقصرين إلى أنّ قراءته ليست تامة ونهائية، وقال: "سيعود غيري من الباحثين يوما إلى معالجة جوانب معيّنة من الانتفاضة". انظر:

- التيمومي، الهادي، **انتفاضة القصرين، تالة (1906)**، ط. 2، صفاقس، دار محمد علي للنشر، 2011، ص. 11.

وبما أنّ هذه النخب المثقفة منتجة لخطاب النخبة، فإنّنا سنعتمده مصدرا أساسيّا للحفر في مواقفها وآرائها، مع وعينا بصعوبة ذلك لأنّ خطاب النخبة حول ذاتها يمكن أن يكون مرآة محرّفة ([2])، وسنعمل قدر الإمكان على مقارعة هذا الخطاب بخطاب النخبة المضادّة.

فكيف كان موقف النخب التونسيّة بشقيّها الصادقي والزيتوني من هذه الانتفاضة، التي مثّلت رغم شكلها التقليدي تجسيدا للوطنيّة الفلاّحيّة، والتي ارتبطت في نظر المعمّرين الفرنسيين وصحفهم اليمينيّة بالتعصّب الديني؟ وكيف حاولت هذه النخبة الإصلاحيّة والمعتدلة التعامل مع الواقع الجديد الذي فرضته الانتفاضة انطلاقا من مرجعيّاتها الفكريّة وخياراتها السياسيّة؟

أولا- ملامح النخب التونسية تحدّد رؤيتها للانتفاضة:

1- النخب التونسية في مطلع القرن العشرين: المواصفات والإكراهات:

تتحدّد النخب التونسية في أواخر القرن 19 وبداية القرن العشرين بجملة من الملامح التي تستمدّ منها هويّتها وتمايزها:

- الاستمرارية والتجدّد والانفتاح: تظهر النخب التونسية بوصفها وريثة المشروع النهضوي الإصلاحي والتحديثي الذي انطلقت بوادره منذ تأسيس المدرسة الحربية بباردو (1840)، والذي بلغ أوج إشعاعه في عهد الوزير الأكبر خير الدين باشا. وكان من دأب النخب التونسية أن تعاود الظهور بشكل جديد بعد كلّ نكسة تواجهها، إذ عاشت النخبة التأسيسية أزمة العهد الدستوري وانتفاضة 1864، وعادت أقوى بوصول خير الدين إلى الوزارة الكبرى، ثمّ تشتتت بعد إزاحتها عن السلطة السياسية، وعاودت الظهور من جديد بعد الاحتلال الفرنسي مؤكدة قدرتها الكبيرة على التجدّد وإعادة إنتاج ذاتها([3]).

---

(2) Leferme-Falguières, Frédérique et Van Renterghem, Vanessa, « Le concept d'élites. Approches historiographiques et méthodologiques », *Hypothèses 2000*, revue de l'école doctorale de l'Université Paris I-Sorbonne, 2001, p. 57-67.

(3) لمعرفة الأطوار الثلاثة التي مرّت بها النخب التونسية الحديثة خلال مسار تشكّلها بين 1840 و1888، انظر:

وتتميز هذه النخب بالانفتاح من خلال مرونة مقاييس الانتقاء التي تحدّد الانتماء إليها، وكذلك من خلال اعتمادها على روافد فكرية خارجية مستمدة سواء من الثقافة الغربية أو من المشروع النهضوي المصري.

– اللاتجانس: يشترط في المؤرّخ الذي يروم التعاطي مع نظرية النخبة، وجعل مصطلح النخب إجرائيا وقابلا للتعبير عن واقع تاريخي محدّد، أن يكون واعيا بأنّ النخب تكون في جوهرها غير موحّدة وغير متجانسة وغير متناسقة ([4]). ينطبق ذلك بصفة مثالية على النخب المثقفة التونسية في بداية القرن العشرين بشقيها الصادقي والزيتوني المستنير، إذ ينحدر أفرادها من أصول اجتماعية وعرقية متنوّعة نسبيّا، وينتمون إلى مهن مختلفة باختلاف نوعية التكوين العلمي([5]). أمّا بخصوص رؤيتهم للثقافة الغربية، ومدى ارتباطهم بالمرجعية الإسلامية والعثمانية، فيكون التمايز أكثر وضوحا، إذ نجد منهم الليبراليين والمعتدلين والراديكاليين وأشباه المحافظين ([6])، ويظهر الاختلاف حتّى في مستوى العلامات الخارجية ذات الطابع الرمزي كاللباس (أصحاب الطرابيش وأصحاب العمائم) وأنماط السلوك والخطاب وطريقة العيش.

– أهمية المقياس الثقافي: في المجتمعات غير المنغلقة تتراجع مقاييس الارتقاء والانتقاء الاجتماعي المرتبطة بالولادة والأصل والعائلة، وتحلّ محلّها مقاييس أخرى للصعود الاجتماعي كالثروة والمستوى الثقافي ([7]). ويبدو جليّا أنّ الانتماء إلى دائرة النخب بالبلاد التونسية غداة الاحتلال كان يتحدّد بالأساس من خلال امتلاك مستوى تعليمي مرموق، واكتساب رأسمال ثقافي رمزي مع القابلية للانفتاح والتبادل الثقافي. وفي هذا السياق، يعرّف الشبان التونسيون أنفسهم بأنّهم: "الشبان الذين تلقوا تعليما فرنسيا إمّا

– ابن عاشور، محمد الفاضل، **الحركة الأدبية والفكرية في تونس (في القرنين 13- 14 هـ/ 19- 20 م)**، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة، تونس، 2009، ص.34-77.

(4) Leferme-Falguières, Frédérique et Van Renterghem, Vanessa, « Le concept d'élites…*op. cit.*

(5) Guezmir, Khaled, *Jeunes tunisiens*, Éditions Alif, Tunis, *1986, p. 40.*

(6) Géniaux, Charles, « Les jeunes tunisiens », *Revue politique et littéraire*, t. 10, nº 20, 14 novembre 1908, p. 635- 637.

(7) Leferme-Falguières, Frédérique et Van Renterghem, Vanessa, « Le concept d'élites…*op. cit.*

في ثانوية كارنو أو في المعهد الصادقي أو في المعهد العلوي" ([8])، ونضيف إلى هؤلاء طبعا الصفوة الزيتونية المستنيرة من تلامذة الأستاذ سالم بوحاجب، التي اعتمدت منهج الإصلاح الديني والاجتماعي، وتكتلت مع النخبة الصادقية وجماعة "الحاضرة"، وساهمت في تنشيط الجمعية الخلدونية وفي إشعاعها ([9]).

– الانتظام داخل المؤسّسات: تسعى كلّ مجموعة اجتماعية مهيمنة إلى التنظّم داخل مؤسّسة أو جهاز خاص بها، وذلك بهدف الدفاع عن مكانتها ومصالحها، وتحديد آليات الانتماء إلى المجموعة أو الإقصاء عنها ([10]). ويعتبر المعمّر والصحفي "أوجين بونهور" أوّل من شدّد على إبراز خطورة التنظيم الذي استنبطته النخب التونسية، ورأى أنّ هذه النخب تشكّل نوعا من "حكومة ظل" تنشط وراء مؤسّسات علنية في الظاهر لكنّها لا تفصح في الواقع عن توجهاتها الحقيقية. وتمثّل الجمعية الخلدونية "المجلس الوطني" أو المنظمة الأساسية لهذه المجموعة، في حين تمثّل جمعية الأحباس المؤسّسة أو "الصندوق الأسود" الذي يتكفّل بالتمويل، وتتولّى جريدة الحاضرة مسألة الدعاية بوصفها المنبر المعبّر عن أفكار النخبة وبرامجها([11]).

– الاعتراف وامتلاك خطاب الشرعية: تحظى النخب التونسية، نتيجة توفّر العوامل التي مرّ ذكرها، بالاعتراف بمكانتها الرمزية وبدورها القيادي، ويتأتّى هذا الاعتراف من الأعلى أكثر منه من الأسفل، إلّا أنّه يكفي لتمكينها من امتلاك خطاب الشرعية الذي يؤهّلها للحديث باسم الرأي العام التونسي.

تفطّن المفكر محمد الفاضل بن عاشور إلى أنّ النخب التونسية كانت تشكو، بحكم طبيعتها، من جملة من المعوقات التي تتحكّم في خياراتها وتكبّل هامش المناورة لديها، إذ ينتمي كلّ أفرادها إلى حاضرة تونس "الذين تثقلهم حضريّتهم وتكاليفهم عن خوض غمار الكفاح العنيف" ([12]). وعلاوة على ذلك كان جلّ المنتمين إلى هذه النخب من الموظفين

([8]) « Les Jeunes tunisiens », *Le Tunisien*, nº 8, 28 mars 1907.

([9]) ابن عاشور، محمد الفاضل، **الحركة الأدبية...نفس المرجع.**

([10]) Leferme-Falguières, Frédérique et Van Renterghem, Vanessa, « Le concept d'élites…*op. cit.*

([11]) Bonhoure, Eugène, « La Tunisie : les ennemis subventionnés», *La Politique coloniale*, 4-5 février 1901.

([12]) ابن عاشور، محمد الفاضل، **الحركة الأدبية...نفس المرجع**، ص. 72.

الذين "يثقلهم ما يثقل الموظفين من مصالح وواجبات"، فيضطرون تبعا لذلك إلى اعتماد منهج الإصلاح السلمي والهادئ. إلّا أنّ انخراطهم في الوظائف الإدارية مكّنهم من كشف دواليب عمل الإدارة الاستعمارية وحقيقة مخططاتها ([13]) وكان أرباب الصحف التونسية يخضعون من جهتهم إلى رقابة مزدوجة: قانونية وذاتية، وكانوا يتحاشون إثارة الإدارة الاستعمارية وغلاة المعمّرين ([14]).

2- في مصادر شرعيّة النخب:

تحتاج النخب إلى كسب الاعتراف بدورها الاجتماعي من قبل سلطة عليا سياسية أو دينية أو ثقافية، وتضطرّ غالبا إلى التعاون مع الهيئة المانحة للشرعية التي خلقتها وكرّست تفوّقها. وتكون أشكال التفاعل بين النخب المحلية والنخب الاستعمارية متنوعة جدّا، إذ يمكن أن تشمل التعاون والاندماج والتثاقف من جهة، أو التنافس والمعارضة والمقاومة من جهة أخرى ([15]).

تتّفق كلّ الدراسات أنّ النخب المثقفة التونسية استفادت غداة الاحتلال الفرنسي من تشجيع جليّ متأتّ من رموز الإدارة الاستعمارية بتونس: المقيم العام "روني ميّاي" (Millet) والعقيد "روبيي" (Rebillet) الملحق بالإقامة العامة، و"لويس ماشويل" Machuel مدير المعارف ([16]). وحظيت النخب التونسية، لاسيّما الشقّ المتشبّع بالثقافة الغربية، بمساندة عدّة صحافيين من ذوي النزعة الليبرالية واليسارية، إضافة إلى بعض الكتّاب المرموقين مثل "شارل جينيو" الذي اعتبر أنّ أفراد هذه النخبة يمثلون وسطاء طبيعيين بين أوربا والإسلام، وأداة مثلى لاختراق جموع المسلمين المتشدّدين والمنغلقين ([17]).

([13]) **المرجع نفسه**، ص. 73 و76.

([14]) Julien, Charles-André, « Colons français et jeunes tunisiens 1882-1912 », *Revue française d'histoire d'outre-mer*, t. 54, nº 194- 197, 1967, p. 103.

([15]) Le ferme-Falguières, Frédérique et Van Renterghem, Vanessa, « Le concept d'élites…*op. cit.*

([16]) Amar, Émile, « La Khaldounyya : une université musulmane en Tunisie », *Revue du monde musulman*, 1re année, nº 3, janvier 1907.

([17]) Géniaux, Charles, « Les jeunes tunisiens…*op. cit.*

مثال آخر أكثر تعبيرا في نظرنا، هو مثال "أوجين بونهور" الذي تحوّل إلى مدافع عن النخب العصرية التونسية بعد أن كان من أشدّ مناوئيهم. كتب "بونهور" سنتي 1900 و1901 مقالين هاجم فيهما بشدّة المقيم العام روني ميّاي، الذي أراد إيجاد سند له ضدّ كبار المعمّرين المعادين لسياسته، فقام بخلق "أرستقراطية مسلمة" تضمّ نخبة الشبّان الحائزين على ثقافة عالية والمتميزين بروحهم الليبرالية وولائهم لفرنسا، ومكّن هذه "القوّة الخفيّة" من امتلاك مؤسّسات وأجهزة ومنابر خاصة بها تمهيدا لضمان اندماجها في الحضارة الفرنسة، أو على الأقل لتوثيق ارتباطها بها. وبيّن أنّ أفراد هذه النخبة أتراك أكثر منهم تونسيين، وأنّهم دبلوماسيون حاذقين يجيدون إخفاء عدائهم لفرنسا، وانتقد فتح الوظائف العليا أمام هذه النخب ومنحها السلطة والنفوذ باعتماد ما أطلق عليه مصطلح « Arabocratie » ([18]).

وفي سنة 1905، اقتنع "بونهور" بأهميّة الدور الذي يمكن أن يلعبه رموز النخبة التونسية في نشر ثقافة التسامح والتقارب بين المسلمين والمسيحيين، وعبّر عن إعجابه بمقال البشير صفر الذي كتبه في جريدة "الدبيش تونيزيان" تحت عنوان "الإسلام المتسامح". وأشاد الكاتب بما يمتلكه رئيس جمعية الأحباس من ثقافة عالية وتكوين غربي متين، واعتبر أنّه أكثر المؤهلين للعب دور الوسيط والموفّق وهمزة الوصل بين ديانتين وحضارتين ([19]).

أعطت مساندة الصحف الفرنسية وبعض مشاهير الكتّاب طابعا تمثيليا للنخب التونسية، إلّا أنّ "المتفوقين" الفرنسيين واصلوا بقيادة زعيمهم "فيكتور دي كرنيار"، وبواسطة صحفهم اليمينية، هجومهم الحادّ على الشبّان التونسيين المتعلمين حتّى قبل انتظامهم الرسمي في صفوف "حركة الشباب التونسي" ([20]).

([18]) Bonhoure, Eugène, « La Tunisie : les ennemis subventionnés…*op. cit.*
- Bonhoure, Eugène, « Arabocratie et annexionnisme », *La politique coloniale*, 28 septembre 1900.
([19]) Bonhoure, Eugène, « L'islam tolérant », *La Dépêche coloniale* », 13 mai 1905.
([20]) Julien, Charles-André, « Colons français…*op. cit.*

3- البشير صفر: تصريح مرجعي حول انتفاضة تالة والقصرين:

سرت غداة اندلاع انتفاضة تالة والقصرين (26 و27 أفريل) إشاعات عديدة منها أنّ الوليّ عمر بن عثمان زار مدينة تونس قبل حوالي شهرين، والتقى عدّة شخصيات من ضمنها البشير صفر الزعيم الأوّل للشبان التونسيين آنذاك، الذي كذّب هذا الخبر عندما اتّصل به مندوب جريدة "تونس الفرنسيّة" اليمينيّة المتطرّفة ([21]). استغلّ الصحفي لقاءه مع البشر صفر ليحصل منه على تصريح يترجم موقفه من الانتفاضة، ومن أبرز ما جاء فيه:

"إذا ما ثبت أنّ الحركة الانتفاضيّة ناتجة فقط عن المسألة الدينيّة، وحكم على المشاغبين بالإعدام، فإنّ واجبي بصفتي مسلما صادقا يفرض عليّ أن أطلب قطع رؤوسهم بنفسي" ([22]). وبيّن أنّ الدين الإسلامي ينكر قتل المسيحي ويعاقب عليه في زمن السلم، أمّا في زمن الحرب فيعتبر ذلك أمرا مباحا. وقد أثارت هذه النقطة بالذات تعليق أحد "المتفوّقين" الفرنسيين، فاعتبرها مجرّد "براعة لغويّة" وتساءل عن المقصود بعبارة "زمن الحرب" الفضفاضة، وعن طبيعة الشخص الذي يمتلك قانونيّا حقّ إعلان هذه الحرب؟ ([23]).

ولمزيد توضيح المسألة من الناحية الفقهيّة، ميّز البشير صفر بين المذهب الحنفي الذي يطبّق مبدأ القصاص على قاتل المسيحي خارج زمن الحرب، والمذهب المالكي الأقلّ تشدّدا، والذي لا يطبّق قانون "السنّ بالسنّ" إلّا إذا تمّ القتل غيلة أو على إثر كمين، سواء كان الضحيّة من الرعايا أو من أمّة أخرى ترتبط بالدولة التي يقطن فيها بمعاهدة كما هو الحال في هذه القضيّة، وإذا لم تتوفّر هذه الشروط يمكن الاكتفاء بعقوبة السجن مع إلزام القاتل بدفع الدية. وختم البشير صفر تصريحه بالتذكير بانتمائه إلى المذهب الحنفي الذي يجيز تطبيق حكم الإعدام على قاتل المسيحي. وقد نقلت جريدة الحاضرة، لسان حال النخب التونسية آنذاك، موقف البشير صفر بطريقتها الخاصة،

([21]) « L'insurrection des indigènes dans la région de Thala », *La Tunisie française*, 30 avril 1906.

([22]) اعتمدنا التعريب الذي قام به الأستاذ الهادي التيمومي في كتابه الموسوم: **انتفاضة القصرين...نفس المرجع**، ص. 229.

([23]) *La Tunisie française*, 24 mai 1906.

فذكرت قوله: "إنّ المسألة فظيعة جدّا وموجبة للانتقام من فاعليها، وإذا ثبت على الفاعل ما نسب إليه، فإنّ نصوص المذهب الحنفي صريحة بما يجب أن يحكم به عليه وهو القصاص على القول الأرجح ([24]).

يستدعي هذا التصريح تقديم بعض الملاحظات التي تهمّ بالأساس الجانب الشكلي، إذ لم يكن تصريحا تلقائيا المراد منه توضيح موقف سياسي، بل إنّه تمّ تحت طلب صحافي فرنسي ربّما أراد توريط البشير صفر ودفعه إلى إعلان تعاطفه مع الانتفاضة التي هزّت الرأي العام الفرنسي. ولم يخل هذا الردّ من ذكاء ومناورة، فورد في شكل رأي فقهي قدّمه بوصفه حنفيا لا بوصفه ناطقا باسم النخب التونسية، لكنّه ترك المجال مفتوحا للتأويل والتعديل لأنّه بنى تصريحه على فرضيّة واحدة، وهي أن تكون الانتفاضة ناجمة عن التعصّب الديني فقط.

أمّا من حيث المضمون، فإنّ هذه "البراعة اللغويّة" التي تعكس شخصيّة المثقّف الحضري والموظف المسؤول والسياسي المعتدل، لا تحجب حقيقة معارضة البشير صفر لهذه الانتفاضة الفلاّحيّة التقليديّة، أو امتعاضه من حصولها بتلك الكيفيّة وفي تلك الظروف بالذات، حيث فاجأته كما فاجأت عناصر النخبة عموما، فلم يتجرأ على تبنّيها لأنّها اكتست طابعا دمويّا في وقت كانت فيه حركة الشباب التونسي الناشئة تخيّر اعتماد العمل السلمي المعتدل وعيا منها بموازين القوى السائدة آنذاك، ولأنّها تمّت بتحريض من أحد "الأولياء" الذين لا يحظون بأيّ تقدير من النخبة العصريّة التونسيّة، ولم تكن نابعة من المدن الحاضنة للنخب بل من الأرياف والبوادي التي يتعامل معها هؤلاء بشيء من التعالي والازدراء والاحتراز، وكذلك لأنّها استهدفت المعمّرين الفرنسيين في وقت تعتمد فيه النخب التونسية سياسة "المشاركة" وتسعى إلى تركيز سياسة التقارب بين العنصر الحامي والعنصر المحمي. وكان هاجس البشير صفر الأوّل ضمان استمرار حركة الشباب التونسي الناشئة وتجنّب توريطها في أحداث هذه الانتفاضة، واتّخاذ ذلك ذريعة لضربها والقضاء عليها في المهد. ولا ننسى أنّ البشير صفر بالذات كان مستهدفا آنذاك من قبل المعمّرين الفرنسيين ارتباطا بالآراء التي صرّح بها أمام المقيم العام الفرنسي في

([24]) "الفراشيش"، **الحاضرة**، عدد 890، 1 ماي 1906.

خطاب افتتاح مؤسّسة "التكيّة"، وذلك رغم اكتفائه بتقديم مطالب معتدلة بأسلوب لبق وموزون ([25]).

كانت جريدة "لوطون" الباريسيّة على صواب عندما ذكرت أنّ حوادث تالة والقصرين مثّلت خيبة أمل بالنسبة إلى المسلمين المتعلّمين، الذين يناضلون من أجل التقارب بين العنصرين، إذ أنّهم يخشون من توقّف مشروعهم بسبب تزايد مشاعر العداء والحقد ضدّ المعمّرين ([26]). وذكرت "لوطون" أيضا نقلا عن جريدة المعمّرين "تونس الفرنسيّة" أنّ النخبة المثقّفة التونسيّة متمسّكة بنفي الطابع السياسي والديني عن هذه الانتفاضة، ولم يفد حتّى ذكر عمليّة "الختان" التي تعرّض لها أحد الأوروبيين في إقناعهم بعكس ذلك. وتنقل هذه الجريدة أنّ حجّتهم في ذلك تتمثّل في عدم تعرّض المنتفضين للمعمّر "برتران" وعائلته لما عرف عنه من علاقة جيّدة بالأهالي، وبالتّالي يوجد وراء هذه الحركة دافع غامض رفضوا الإفصاح عن كنهه رغم إلحاح الصحفي الفرنسي، الذي خمّن بأنّهم يقصدون بذلك تعمّد بعض المعمّرين (المعمّر صال تحديدا) استغلال البدو وإساءة معاملتهم ([27]).

وذكرت "تونس الفرنسية" أنّ الشبان التونسيين شاركوا في نشر عريضة موجّهة إلى البرلمان الفرنسي، تتضمّن اتّهاما للمعمّرين بالتسبّب في انتفاضة الفراشيش ([28]). ويعطي هذا التحليل بعدا آخر لتصريح البشير صفر، الذي اكتفى فيه بالتنديد الشديد بالانتفاضة إذا كانت دوافعها التعصّب الديني أو الجهاد المقدّس فقط، في حين لم يفصح عن الجانب الآخر من موقفه، وموقف النخب المثقّفة الحضريّة، التي كانت تعي جيّدا أنّ العامل الديني لم يكن المحرّك الرئيسي والوحيد لهذه الحركة. ويمكن تفسير هذا الصمت أو الحذر بعدّة عوامل، ومن أبرزها عدم منح غلاة المعمّرين الفرنسيين ذريعة مناسبة لضرب حركة الشبّان التونسيين.

([25]) التيمومي، الهادي، **انتفاضة القصرين...نفس المرجع**، ص. 189.

([26]) « L'insurrection de Thala », *Le Temps*, n° 16388, 4 mai 1906.

([27]) *Le Temps*, n° 16389, 5 mai 1906.

([28]) « Autour des évènements de Thala », *La Tunisie française*, 5 mai 1906.

ثانيا- مناورات النخب: خطاب تجزيئي ومخاتل حول الانتفاضة:

1- جماعة الحاضرة: رؤية توفيقيّة معتدلة ([29]):

قدّمت جريدة الحاضرة في المقال الأوّل الذي خصّصته لهذه الحركة، قراءة أوليّة اعتمدت فيها على مصادر مختلفة منها الجرائد الفرنسيّة والروايات الرسميّة، واعتبرت أنّ هذه القراءة ليست نهائيّة إذ وعدت بالرجوع إلى تلك الحوادث "وعرضها على محكّ النقد والتحليل عند انتهاء أعمال البحث" ([30]). أكّدت الجريدة في بداية المقال خطورة هذه الحوادث وما يمكن أن ينجرّ عنها من عواقب وخيمة، وحدّدت بذلك موقفها الرافض لهذه الحركة التي تسبّبت في "تلويث هذه المملكة الآمنة منذ ربع قرن"، وفي ضرب السلم الأهلي الذي نجحت "دولة الحماية المنيعة" في إرخائه. أمّا عن طبيعة هذه الحركة، فقد اعتبرت "الحاضرة" أنّها قلاقل وحوادث غير عاديّة ذات "صبغة سياسيّة" واضحة، ثمّ صنّفتها بكلّ وضوح على أساس أنّها "حركة ثورة وعصيان" ([31]).

استعرضت "الحاضرة" وقائع هذه الحركة باختزال، وحمّلت مسؤوليّة اندلاعها إلى عمر بن عثمان، وهو "رجل متدروش قدم من الجزائر وأصله من قبيلة أولاد سيدي عبيد، التفّ حوله كلّ ناعق وطارق"، وقد تلاشت الحركة وعاد الهدوء بمجرّد القبض عليه. وكان موقفها من الثوّار الذين شاركوا فعليّا في هذه الانتفاضة أكثر عنفا وتشدّدا، فرأت أنّهم مجموعة من "الأغبياء كلّهم من أهل اللصوصيّة وقطّاع الطرق"، وأنّهم ارتكبوا جرائم فظيعة تستحقّ الزجر والعقاب الشديد، واعتبرت أنّهم يمثّلون "ثلمة وشامة سوداء في وجه الجنس البشري، وعالة مخجلة لأبناء جلدتهم عموما وللتونسيين خصوصا". وسعت بطريقة باهتة إلى تبرئة أهالي الفراشيش من أيّ "مشاركة عدوانيّة" في هذه الحركة، محمّلة المسؤوليّة فقط إلى أتباع الوليّ الجزائري "من طيّاش الجهات التي مرّ بها"، وهم أقليّة من محترفي الإغارة واللصوصيّة ([32]). وختمت مقالها باستعراض موقف البشير

([29]) صدرت "الحاضرة" يوم 2 أوت 1888 بمبادرة من الصادقيين الأوائل أمثال البشير صفر وعلي بوشوشة ومحمد بن الخوجة وخليل بوحاجب والمنوبي بوسن ويونس حجّوج، وكذلك بمباركة من أبرز رموز النخبة الزيتونيّة المستنيرة وعلى رأسهم سالم بوحاجب ومحمد السنوسي.

([30]) "الفراشيش"، **الحاضرة**، عدد 890، 1 ماي 1906.

([31]) "الفراشيش"، **الحاضرة...نفس المصدر**.

([32]) **المصدر نفسه**.

صفر من انتفاضة الفراشيش مكتفية بتلخيص ما ورد فيه من دون أيّ تعليق، ولكن نفهم ضمنيّا أنّها تتبنّى هذا الموقف باعتبار أنّ البشير صفر كان آنذاك الرمز الأوّل لحركة الشباب التونسي الناشئة، وأحد المؤسّسين لهذه الجريدة والمحرّرين بها.

عادت "الحاضرة" إلى حادثة الفراشيش بعد حوالي عشرين يوما من صدور المقال الأوّل، ولكنّها بيّنت أنّها لا تزال بصدد تمحّص الروايات العديدة في انتظار الوصول إلى "ترجيح رواية على أخرى"، وعبّرت ضمنيّا عن إعجابها بتحقيقات جريدة "الطان" الفرنسيّة « Le Temps »، وتمسّكها بالرواية الرسميّة للأحداث ([33])، وهو ما يؤكّد ارتباط هذه الجريدة بالإدارة الاستعماريّة، ولاسيّما بالكاتب العام للحكومة "برنارد روا" « Bernard Roy »، حيث كانت منذ أواخر سنة 1888 تطبع في "المطبعة الرسميّة"، وتتلقّى إعانة ماليّة من الحكومة، إضافة إلى مائة اشتراك في الجريدة توزّع على الإدارات ([34]). ومن دلائل ذلك اكتفاؤها في هذا المقال بتلخيص ما ورد في مداخلة "البارون دانتوار" « Baron d'Anthouard »، أمام "الندوة الاستشاريّة" بعد التحقيق الميداني الذي قام به في تالة والقصرين. وكشف المعتمد لدى الإقامة العامّة في تقريره بعض الحقائق المهمّة حول هذه الانتفاضة التي يرتبط وقوعها في نظره بالتعصّب الديني، ولم تكن لها علاقة بوضعيّة الأهالي أو بنقمتهم على معمّري الجهة. وحاول "دانتوار"، خلافا للتوجّه السائد، التقليل من أهميّة هذه الحركة، فاعتبرها حركة محدودة ومعزولة اقتصرت على مجال ضيّق وشارك فيها بضعة عشرات من المتمرّدين. وبيّن أنّ "المتدروش المجنون" عمر بن عثمان كان "مجرّد آلة تحرّكها يد رجلين من اللصوص المخطرين استعملا جاهه ونفوذه لإحداث تلك الفوضى لاقتناص منفعة من ورائها"، ولم يبرّئ الإدارة المحليّة من المسؤوليّة، إذ اعتبر أنّ وجود أحد ممثّلي الحكومة في مسرح الواقعة كان يكفي لمنع حصول كارثة تالة ([35]).

ولعلّ "الحاضرة" وفريقها تتبنّى أهمّ ما ورد في هذه الرواية الرسميّة المعتدلة نسبيّا مقارنة بآراء المعمّرين واليمينيين الفرنسيين المتعصّبين، وكانت علاقة الشبّان التونسيين

([33]) "حادثة الفراشيش"، **الحاضرة**، عدد 892، 22 ماي 1906.

([34]) العريبي، علي، **علي بوشوشة حياته وآثاره**، وزارة الشؤون الثقافيّة، تونس، 2008.، ص. 44.

([35]) "حادثة الفراشيش"، **الحاضرة...نفس المصدر**.

جيّدة بالبارون "دانتوار" حيث تأسّفت جريدة "التونسي" على رحيله من تونس واعتبرته من أكبر المناصرين لقضايا النهوض الثقافي والاقتصادي للتونسيين ([36]).

تعرّض علي بوشوشة في إحدى الافتتاحيّات إلى قضيّة تالة والقصرين من جديد، وذلك كردّ فعل على انتشار دعوات صادرة عن المعمّرين بتونس والجزائر طالبوا فيها بتطبيق العقاب الجماعي، أو المسؤوليّة الجماعيّة، على مرتكبي الجرائم في الأرياف والبوادي. وقدّم قراءة جديدة لانتفاضة الفراشيش، اعتمد فيها كالعادة على تأويل ما ورد في تقارير "دانتوار" المعتمد لدى الإقامة العامّة و"بول غوتيي" « Paul Gauthier » مساعد الكاتب العام للحكومة ([37]). وحاول بلورة موقف جديد من الأحداث ينسجم مع الرواية الرسميّة، ويعارض في نفس الوقت الرواية التي يتبنّاها المعمّرون الفرنسيّون والقائمة على تهويل الحدث وإبرازه على أساس أنّه ثورة تستهدف كلّ المسيحيين والمعمّرين، ويقول في ذلك:

"إنّ هذه الثورة الموهومة والفوضى المزعومة إن هي إلّا عبارة عن حادث محلّي أحدثه رجل معتوه عار عن كلّ صلاح خال عن كلّ نفوذ، وإنّ الواقعة في حدّ ذاتها ليس لها أدنى صبغة ثورة أو عصيان أو مناواة لعموم النزلاء ضرورة أنّها لم تشمل غير عائلة القتيل دون غيره من الأوروبيين الذين بجواره" ([38]). ويعتبر هذا التوجّه المزدوج، أي الاقتصار على التنديد بما ينشر في صحف المعمّرين مقابل الثناء على سياسة الإقامة العامّة، اختيارا مدروسا وحلّا وسطا تبنّاه علي بوشوشة والبشير صفر لتجنّب غضب إدارة الحماية والدفاع عن مصالح التونسيين في نفس الوقت ([39]).

تعتبر افتتاحيّة 11 ديسمبر 1906، أهمّ ما كتبه علي بوشوشة، والنخبة التونسيّة عموما، حول انتفاضة الفراشيش، وقد تعمّد تأجيل الإفصاح عن هذا الموقف ليأتي بعد استكمال الأبحاث، وقبل يوم واحد من التصريح بالحكم في هذه القضيّة ([40]). أشار

---

(36) « Le prochain départ de M. d'Anthouard », *Le Tunisien*, nº 2, 14 février 1907.

(37) "الحذار الحذار من مزالق الأخطار"، **الحاضرة**، عدد 898، 3 جويلية 1906.

(38) **المصدر نفسه.**

(39) العريبي، علي، **علي بوشوشة...نفس المرجع**، ص. 44- 45.

(40) "قضيّة تالة والقصرين"، **الحاضرة**، عدد 919، 11 ديسمبر 1906.

الكاتب في البداية إلى ما ارتبط بهذه القضيّة من روايات متضاربة وخرافات منتحلة، وبيّن أنّ كلّ تشويش يستدعي الردع الزجري مهما كان مصدره. وجدّد التذكير بموقفه السابق، الذي يعتبر فيه أنّ هذه الحركة لا يمكن تصنيفها على أساس أنّها "ثورة أو تعصّب من المسلمين"، فهي في نظره مجرّد حادث محلّي تسبّب فيه "سذّج من البوادي... انصياعا لهواجس نفس أمّارة بالسوء"، وذلك في بيئة ملائمة لأنّها لم تنل حظّها من التعليم والتهذيب ولم تنتشر بها التعاليم الصحيحة للشريعة الإسلاميّة، غير أنّ هذا الحادث وقع تهويله من قبل المغرضين من غلاة الاستعمار خدمة لمصالحهم الخاصّة ([41]).

وحاول علي بوشوشة، ولو ببعض الحذر، الظهور بمظهر المدافع عن الأهالي، إذ لم يُبْدِ مشاعر العداء تجاه "الدخلاء" من المعمّرين الذين "استدرّوا خيرات البلاد وابتزّوا أموالها ورتعوا في بحبوحة رفاهها"، وذلك رغم تعمّدهم إهانة التونسي وتحقيره وإذلاله. وفوّض أمر محاسبة المشاركين فعليّا في قتل "صال" وأمّه إلى نظر المحكمة الجنائيّة، مذكّرا أنّ الإسلام يحرّم الاعتداء على النفوس "ولو بغير فتك"، وأنّ الشهادات المقدّمة في هذه القضيّة فيها بعض الخفايا والخبايا التي تكاد أن تحجب الحقيقة. وتحدّث لأوّل مرّة في جريدة "الحاضرة" عن قتلى مسيرة تالة فقال: "وممّا يلاحظ في هذا الخصوص أنّ الدم الذي أهرق في هذا الحادث، قد اختلط بدم أحد عشر نفرا من العربان الذين أتوا لساحة بلاد تالة مهاجمين أو مستسلمين، فإذا كان تهوّر قبيلة الفراشيش، إن لم نقل التعصّب الذي يحاول أرباب الأغراض والمطامع إلصاقه بالمسلمين، هو الباعث على إهراق دم (سال) ومن معه ليت شعري من المسؤول عن أرواح القتلى من العرب الذين لا يملكون من السلاح إلّا الكاذب أو العتيق أو الهراوة والنبابيت" ([42]).

حاول علي بوشوشة التعمّق في تحديد المسؤوليّات الحقيقيّة والأسباب الموضوعيّة لأحداث تالة والقصرين، فبيّن أنّ انتشار "الجهل والغباوة" في صفوف البدو، ويقصد بذلك انتشار الأميّة والفهم الساذج والسطحي لتعاليم الدين الإسلامي، جعلهم يتبعون "المتدروش عمر بن عثمان ومقدّم طريقته العوجاء" كما يتبع القطيع الراعي إلى المجزرة، وهما من

([41]) **المصدر نفسه.**

([42]) **المصدر نفسه.**

يتحمّلان في نظره وزر هذه الحادثة، كما أشار ضمنيّا إلى مسؤوليّة الحكومة في ذلك نظرا لمحدوديّة المدارس وغياب المرشدين المتنورين في البوادي والأرياف، وكذلك إلى مسؤوليّة بعض المعمّرين الذين حاولوا إخفاء الحقائق أو تزييفها، وبعض ممثّلي السلطة المحليّة الذين تستّروا على الوليّ وزيّفوا الحقائق. واستنادا إلى كلّ ذلك حاول تبرئة أهالي الفراشيش الذين وقعوا ضحيّة التدجيل، وتعرّضوا إلى القمع الشديد، داعيا المحكمة إلى "تمحيص الحقيقة...والكشف عن المسؤوليّة الأصليّة" ([43]).

واصلت "الحاضرة" متابعتها لانتفاضة الفراشيش، واختتمت هذا الملف بنقل الأحكام الصادرة عن محكمة سوسة ضدّ المتّهمين في هذه القضيّة من دون أيّ تعليق يذكر على طبيعة الأحكام، ولكنّها استغلّت الفرصة لتبيّن أنّ أحداث القصرين وتالة كشفت حجم المغالطات والتشويهات التي طالت الأهالي "الذين هم أطوع للحكومة من ظلّها وأخلص ولاء من عبيدها"، وبيّنت أنّ المنتفضين، وأطلقت عليهم هذه المرّة اسم "المارقين عن جادّة الاعتدال"، لم يتحرّكوا بدافع التعصّب الديني أو العداء للمعمّرين، كما أشارت إلى تبرئة المحكمة لأعوان الحكومة من كلّ تقصير في ممارسة وظائفهم، ونوّهت بالمحامين الذين حاولوا كشف الحقيقة بكلّ تجرّد ([44]).

ويتّضح بذلك أنّ جريدة الحاضرة حاولت بأسلوبها المعتدل دحض الرواية الرائجة في صفوف المعمّرين الفرنسيين وجرائدهم اليمينيّة المتعصّبة، فبيّنت أنّ أحداث القصرين وتالة تمثّل أحداثا ذات طابع محلّي تمثّلت في انسياق بعض البسطاء وراء الوليّ الجزائري وأعضاده المتشدّدين، ولم تكن بالتّالي ثورة عامّة ذات بعد ديني ضدّ المسيحيين أو حتّى انتفاضة ضدّ المعمّرين الفرنسيين. وتبنّت قراءة توفيقيّة للأحداث تربط بين الموقف الحكومي الرسمي من جهة، وموقف النخب الإصلاحية التونسية من جهة ثانية، وتقوم على التقليل من شأن الحركة والاكتفاء بانتقاد قائدها أو محرّكها الروحي عمر بن عثمان وبعض أتباعه، مع الحرص على عدم التورّط في مساندتها رغم محاولات تبرئة الأهالي بوصفهم ضحايا غياب التعليم والتنوير في جهاتهم. ونلاحظ في هذا السّياق أنّ افتتاحيّة يوم 11 ديسمبر تمثّل، رغم طابعها المعتدل إجمالا، تطوّرا ملحوظا في أسلوب

([43]) **المصدر نفسه.**

([44]) "الحكم في قضيّة تالة والقصرين"، **الحاضرة**، عدد 920، 18 ديسمبر 1906.

"الحاضرة" وفي تعاطيها مع قضيّة تالة والقصرين، وهو تطوّر مرتبط بسعي هذه الجريدة إلى التخلّص من ارتباطها الوثيق بإدارة الحماية منذ شهر ديسمبر 1906 حتّى تتحرّر أكثر من القيود المفروضة عليها ([45]). وقد أعلن علي بوشوشة عن فكّ ارتباط جريدته مع الجهات الرسميّة في بداية جانفي 1907 وذلك بالتخلّي عن طبع الجريدة في "المطبعة الرسميّة" وتحويلها إلى "القسم العربي من المطبعة العموميّة" بهدف التخلّص من وصاية الإدارة ورقابتها، واعترف أنّ الارتباط بالإدارة الاستعمارية لم يسمح لجريدته "بإطلاق عنان البحث في سائر المواضيع السياسيّة والمسائل العامّة بما ترتضيه لنفسها أو يتمنّاه الجمهور لها من التوسّع والتصرّف في الحريّة" ([46]).

2- النخب الزيتونية: مواقف متباينة من الانتفاضة:

اهتمّت جريدة "الصواب" لصاحبها محمد الجعايبي، وهو زيتوني متخرج من الخلدونية ومناصر مثل أستاذه البشير صفر لفكرة الجامعة الإسلامية، بانتفاضة الفراشيش، فخصّصت لها مقالا مطوّلا يوم 4 ماي افتتحته بالثناء على دولة الحماية التي نجحت في تحقيق الأمن بالبلاد التونسيّة، وخصوصا بالأرياف والبوادي حيث أجبرت "الأعراب" على "الطاعة وغلّت أيديها عن شنّ الغارات وصنوف الاعتداء"، وقضت قضاء تامّا على "الثورات التي كانت قبل الحماية وأوهنت قوى الأمّة". وبينما كانت البلاد على هذه الحال، طرأ حدث مفزع ومؤسف كدّر صفوها، ويتمثّل في حادثة القصرين التي هي "من أعمال غوغاء الأعراب الخائضين في أبحر العماية" ([47]).

شرع صاحب المقال بعد هذه المقدّمة في استعراض وقائع هذه الانتفاضة معتمدا في ذلك الرواية الرسميّة، والروايات الواردة بالصحف الفرنسيّة بتونس، فذكر أنّ الأعراب القاطنين بالقصرين "أعلنوا الثورة والعصيان بتحريض وتحت زعامة درويش مغربي"، وعدّد ما قام به الثوّار من أعمال في ضيعة المعمّر "صال"، وأشار إلى عدم اعتدائهم على المعمّر "برتران"، وهو "من الرجال الذين يمثّلون الإنسانيّة والرزانة، وله علائق

([45]) العريبي، علي، **علي بوشوشة...نفس المرجع**، ص. 46.

([46]) "نهضتنا الجديدة بعد حلول السنة العشرين لتأسيس الجريدة"، **الحاضرة**، عدد 922، 8 جانفي 1907.

([47]) "حادثة القصرين"، **الصواب**، عدد 106، 4 ماي 1906.

صافية من الكدر مع عموم الأعراب حتّى أصبح محبوبا لديهم محترما"، وأشار إلى قيام المهاجمين بأعمال النهب، وفرض النطق بالشهادتين، وحتّى "الاختتان" على أحد العملة بمركز تجويد الخيول، ولم تفته الإشارة إلى سرعة تدخّل الدولة "بكلّ حزم ونشاط". وعلى الرغم من جنوح المتمرّدين في اليوم الثاني من الانتفاضة (27 أفريل) إلى الخروج السلمي، فإنّ كاتب المقال تبنّى الرواية الأكثر غلوّا قائلا: "وفي يوم الجمعة أعلم المراقب المدني بأنّ عددا عظيما من الأعراب تحت رئاسة درويش مغربي (قبّحه الله وقبّح سعيه) يقصد تالة بنيّة الانتقام من الهيئة الحاكمة بالمراقبة والفتك بالفرنسويين" ([48]).

توصّل محمد الجعايبي في ختام مقاله إلى اقتراح بعض الحلول المرتبطة بتشخيصه لحوادث القصرين، وهي:

– كشفت حوادث القصرين خطأ المعارضين لتعليم التونسيين، أو الاقتصار على تعليم عدد محدود منهم. وبدل أن ينتقد المعمّرين المقصودين بهذا التلميح، عاد مرّة أخرى لاستهداف أهل البوادي والخيام "إذ لو كان هؤلاء الأعراب على بيّنة من دينهم لما نزعوا للثورة والعصيان مهما كانت الأسباب، على أنّ جهلهم لا يحول بينهم وبين ما سينالهم من العقاب في شريعة الإنصاف لأنّ الإسلام يحرّم شقّ عصا الطاعة ونكث عهود المعاهدين حتّى أنّه يرى محاربتهم كمحاربة المسلمين".

– اقترح على الدولة إرسال المدرّسين والوعّاظ إلى الأرياف والبوادي "التي تمكّنت فيها جراثيم التوحّش والهمجيّة" ليعلّمونهم المبادئ الصحيحة للدين الإسلامي، على أن تكون نفقتهم على حساب خزينة إدارة الأوقاف ([49]).

عادت "الصواب" يوم 25 ماي لإثارة قضّية القصرين، فانتقدت جموع "المتوحشين" الذين أغواهم الشيطان للعصيان والتمرد، كما انتقدت "المكابرين" من المعمرين الذين استغلوا هذا الحدث لإبراز حقدهم على الأهالي المسالمين، وأشادت بالمقابل بتقرير "البارون دانتوار" مبيّنة أنّ هذه الحركة لا ترتبط بالتعصب الديني بل بتعصّب التوحش

([48]) **المصدر نفسه.**

([49]) **المصدر نفسه.**

والجهل ([50]). واكتفت في المقال الأخير باستعراض بعض ما جاء في أقوال الشاهدين الرئيسيّين "صال" و"برتران"، إضافة إلى شهادة قايد الفراشيش الهادي الجيلاني، ثمّ بذكر الأحكام الصادرة ضدّ المتّهمين من دون أدنى تعليق ([51]). ولكنّ الجريدة نوّهت في نفس هذا العدد بالمحامي الجمهوري الاشتراكي "أوغست دستري" « Auguste Destrées » مدير جريدة "بريد تونس"، الذي دافع عن المسلمين المتّهمين في قضيّة القصرين، و"نفى عنهم تهمة التعصّب الديني والوثوب على دولة فرنسا انتقاما من أبنائها"، واعتبر أنّ السبب الرئيسي لهذه الانتفاضة يعود إلى "مظالم المعمّرين وتعدّياتهم على الجنس العربي في تلك الجهة" ([52]). وقد أشارت جريدة "إظهار الحقّ" لصاحبها أحمد القبايلي بدورها إلى مرافعة "دستري" الذي اتّهم المراقبة المدنيّة وإدارة العمل بتجاهل التجاوزات الشنيعة التي ارتكبها المعمّرون في حقّ سكّان البوادي، ممّا دفعهم "للحماسة والأخذ بالثأر" ([53]). وهو نفس السبب الذي ركّز عليه المحامي حسونة العيّاشي في مرافعته، إذ بيّن أنّ الدافع الرئيسي لحوادث القصرين هو الرغبة في الانتقام من أحد المعمّرين الذي عرف بسوء معاملته للأهالي، وأثار هذا التلميح احتجاج المعمّر الفرنسي "صال" الذي اعتقد أنّه الشخص المعني بالأمر ([54]). ونشير إلى أنّ حسونة العيّاشي، المنتمي إلى النخبة العصريّة وأحد منشّطي "الحزب الإصلاحي" في بداية العشرينات، لم يتطوّع للدفاع عن المنتفضين من تلقاء نفسه، وإنّما كان مسخّرا من قبل المحكمة ([55]).

اهتمت "الصواب" بعد مدّة بالثناء على الكاتبة الشهيرة "مريام هاري" « Myriam Harry » التي واكبت محاكمة المتّهمين في سوسة وكتبت عن معاناتهم في جريدة "الطان" « Le Temps »، واعتبرت الجريدة أنّ التقرير الذي حرّرته هذه الكاتبة "أفضل ما كتب في الموضوع دافعت فيه عن العرب دفاع الأبطال الذين لا ينقادون إلّا إلى

(50) *ANT*, Série E, Carton 550, Dossier 16-17 : coupures de presse concernant les événements de Kasserine-Thala 1906.

(51) "نازلة القصرين"، **الصواب**، عدد 137، 14 ديسمبر 1906.

(52) "الأستاذ دستري"، **المصدر نفسه**.

(53) "نازلة القصرين"، **إظهار الحقّ**، 16 ديسمبر 1906.

(54) « L'affaire de Thala », *Le Temps*, 13 décembre 1906.

(55) التيمومي، الهادي، **انتفاضة...نفس المرجع**، ص. 191.

ضمائرهم الحرّة"، وهو ما أثار غضب "دي كرنيار" وسخطه ([56]). وتشير الجريدة هنا إلى المقال الذي نشرته "مريام هاري" يوم 23 فيفري 1907، وتناولت فيه بأسلوب أدبي راق وضعيّة المتّهمين وأهاليهم، وعبّرت عن تعاطف إنساني معهم، وحتّى مع الوليّ عمر بن عثمان "ذي الملامح الطفوليّة والأنثويّة البريئة" الذي شبّهته بالمقاومة الفرنسيّة "جان دارك"، كما تحدّثت عن مظاهر البؤس والسذاجة الطاغية على أهالي الفراشيش"، وانتقدت بالمقابل غطرسة المعمّرين الفرنسيين وتعجرفهم ([57]).

يلاحظ ممّا تقدّم أنّ موقف محمد الجعايبي تميّز في بداية الانتفاضة بالتحامل الشديد على المنتفضين وقائدهم الروحي عمر بن عثمان، وكشف عن عداء كبير تجاه سكان الأرياف والبوادي التونسيّة، ثمّ عمد انطلاقا من أواخر سنة 1906 إلى اعتماد طريقة ملتوية للتعبير عن موقف جديد من الحركة الانتفاضيّة من خلال التنويه بمواقف المحامي والصحفي "دستري" والكاتبة "مريام هاري"، التي اتّسمت بالتعاطف مع الثوّار وتأكيد البعد السياسي والوطني لانتفاضتهم. ويحيل ذلك إلى وجود فرضيتين:

– يمكن أن يكون موقف مدير جريدة "الصواب" قد تغيّر وتطوّر بعد اتّضاح بعض الحقائق، حيث عبّر في بداية أفريل 1907 عن ارتياحه لصدور قرار رئيس الجمهوريّة الفرنسيّة القاضي بتغيير عقوبة الإعدام الصادرة ضدّ ثلاثة متّهمين إلى السجن المؤبّد، وعبّر عن أمله في التخفيف من عقوبات باقي المحكومين بأحكام طويلة، واعتبرهم من المنكوبين ([58]). ويمكن تفسير هذا التحوّل بتركيز الصحف الانكليزيّة والفرنسيّة على الربط بين التعصّب الديني الذي ميّز هذه الانتفاضة وانتشار أفكار الجامعة الإسلاميّة، وبما أنّ محمد الجعايبي كان من أكثر المتحمّسين لمبادئ "الاتّحاد الإسلامي" فإنّه اضطرّ إلى نفي الطابع الديني عن انتفاضة الفراشيش حتّى يساهم في دحض التهم الرائجة ضدّ أنصار الرابطة العثمانيّة. وقد بادر في هذا السياق إلى مهاجمة انكلترا فأصبح يعتبرها منذ حادثة "دانشواي" عدوّة الإسلام والمسلمين، وانتقد تصريح وزير خارجيّتها الذي تحدّث عن انتقال التعصّب الإسلامي من مصر إلى تونس والجزائر

([56]) "مدام مريم هانري" (كذا)، **الصواب**، 15 مارس 1907.

([57]) Harry, Myriam , « Impressions tunisiennes, autour de l'affaire Thala-kasserine », *Le Temps*, 23 février 1907.

([58]) "تازلة القصرين"، **الصواب**، 5 أفريل 1906.

([59]). وطرح الجعايبي فكرة تكوّن "اتّحاد فرنسي إسلامي" تتولّى فرنسا بمقتضاه قيادة العالم الإسلامي وحمايته بدلا عن انكلترا التي كشفت الأحداث حقيقة نواياها الخفيّة تجاه المسلمين وخليفتهم العثماني ([60]).

– أمّا الفرضيّة الثانية، فتتمثّل في وجود موقف خفيّ للنخبة التونسيّة مفاده أنّ الانتفاضة كانت مرتبطة بالأساس بتجاوزات المعمّر "صال" وسوء معاملته للأهالي، وهو ما لمّحت إليه بعض الجرائد الفرنسيّة كما ذكرنا سابقا، إلّا أنّ عناصر هذه النخبة لم تكن لها الجرأة آنذاك على الإفصاح عن هذا الموقف خشية من تبعات ذلك على مستوى علاقاتها بالسلطة الاستعماريّة وبالمعمّرين الفرنسيين.

سلكت بعض الصحف القريبة من "الصواب" في التوجّه الزيتوني الميّال إلى الرابطة العثمانيّة، مثل جريدة "المزعج" لصاحبها محمد بن عمران الماجري، مسلكا مشابها في التركيز على ضرورة تعليم الأهالي للحدّ من انتشار الطرق الدينيّة في الأرياف والبوادي التونسيّة. وقد ظهرت جريدة "المزعج" لفترة قصيرة استمرّت من أوت إلى ديسمبر 1906، ولم تتناول انتفاضة الفراشيش إلّا في مناسبة وحيدة في مجرى دفاعها عن ضرورة تعليم الأهالي. انتقد محمد بن عمران الماجري في مقاله وضعيّة التعليم في عملي ماجر والفراشيش، إذ توجد مدرسة وحيدة في تالة لم يتخرّج منها "فرد ولو بشهادة ابتدائيّة"، واقترح على الحكومة الاستعماريّة مزيد الاهتمام بسكّان هذه المناطق بإنشاء المدارس "حتّى لا يبقوا عرضة للتدجيل، فما بالعهد من قدم من حادثة القصرين وكم نكبت نزعات الشياطين بأهلها المساكين المغرورين". وحاول التقليل من أهميّة هذه الحادثة التي بالغت الجرائد الفرنسيّة في إبراز خطورتها، كما بيّن أنّ "المتنوّر من الأهلين" على وعي تام بقوّة فرنسا لذلك فهو مقتنع بضرورة "الانقياد لسلطانها"، وختم مقاله بالدعوة إلى تجاوز هذه الأحداث والتركيز على النهوض بأهالي الجهات التي لم تتعوّد الانضباط إلى سلطة الدولة، فقال: "على كلّ حال عفا الله عمّا سلف من السّهو، ونطلب الآن من مصلحة الحكومة أن تعلّم الناس وتعاجلهم بالتعليم بجعل مكتبا هناك

([59]) "مسألة دانشواي"، **الصواب**، عدد 118، 27 جويلية 1906.

([60]) "الاتّحاد الفرنسوي الإسلامي"، **الصواب**، عدد 120، 10 أوت 1906.

يتناول جبرا بين الفراشيش وماجر ويرشدهم على الأقلّ كيف يسيرون في البلاد مع العباد سيّما الحاكم مجهول المعنى" ([61]).

نجد التوجّه ذاته في جريدة "النصيحة" لصاحبها محمد الصادق بن ابراهيم، الذي درس بالكتّاب ثمّ بالمدرسة الخلدونيّة، إذ استغلّ التذكير بانتفاضة القصرين مدخلا للمطالبة بنشر التعليم والعلوم العصريّة في الأرياف التونسيّة، وذلك من أجل قطع الطريق أمام مظاهر الشعوذة والتدجيل التي ارتبطت هناك بتأثير الزوايا والطرق الدينيّة. ويقول في ذلك:

"فاضرب لهم مثلا مسألة القصرين، أرأيت لو كانت تلك الأرجاء مضيئة بأنوار العلوم أيحتجب عنهم ما نزل بهم بعد حين أم يجدون في رؤوسهم مركزا لقبول قول ذلك الدجّال المهين. كلّا بل العلم لا يكون وسيلة إلّا للسعادة والعمران والراحة التّامة للجمهور والأفراد، فنحن باسم المصلحة الأهليّة نطلب وبالإنصاف نستنجد في رفع أصر الجهل عنّا وجبر سائر الطبقات من الأهالي على اقتناء مبادئ العلوم ولا نرى أنّ مطلبنا يكلّف خزينة الحكومة شططا" ([62]).

يبدو من خلال ما تقدّم أنّ النخبة الإصلاحيّة الزيتونيّة ركّزت بحكم توجّهها الإصلاحي العام على ضرورة النهوض بالتونسيين عن طريق نشر التعليم ومقاومة البدع والخرافات، واضطرّت إلى اتّخاذ مواقف معتدلة ومهادنة السلطة الفرنسيّة لتتجنّب المواجهة المباشرة مع غلاة المعمّرين الفرنسيين، إلّا أنّ بعض الجرائد الأخرى الأكثر تشدّدا مثل "الرشديّة" اختارت في مجرى تحليلها لانتفاضة تالة والقصرين مسلكا مغايرا وهو مواجهة هؤلاء المعمّرين.

3- الصادقي حسين بن عثمان وجريدة "الرشديّة": موقف محافظ ومتشدّد ([63]):

([61]) "ماجر والفراشيش"، **المزعج**، عدد 8، 21 سبتمبر 1906.

([62]) "حاجتنا إلى العلوم"، **النصيحة**، عدد 3، 29 مارس 1907.

([63]) هو ابن علي بن عثمان القرقني الأصل والصفاقسي المولد، الذي اشتغل بميناء صفاقس ثمّ عيّن عاملا على قيادة أحواز تونس قبل أن يخيّر التفرّغ إلى التعليم الزيتوني، وبادر سنة 1903 بتأسيس

اختارت جريدة "الرشديّة" في تعاطيها مع انتفاضة تالة والقصرين توجّها واضحا ومحدّدا، ويتمثّل في الدفاع عن أهالي الفراشيش، وانتقاد المعمّرين الفرنسيين، وذلك من دون الدخول في استعراض تفاصيل الأحداث والروايات المرتبطة بها. وقد تولّت في مقالها الأوّل، الذي تلا ظهورها بعد فترة من الاحتجاب، وضع إصبعها على السبب الرئيسي لهذه الحركة الانتفاضيّة، التي جاءت حسب نظرها احتجاجا على تعسّف بعض المعمّرين بالجهة، وسوء معاملتهم لأهالي قبيلة الفراشيش، ويقول حسين بن عثمان في ذلك: "إنّ هذا الحادث المحزن لم يقع إلّا من بعض الجهالة... والمظنّون أنّه من باب الأخذ بالثأر من بعض المعمّرين" ([64]). وتعتبر "الرشديّة" بذلك من الجرائد التونسيّة القليلة التي شدّدت على هذا المعطى تصريحا لا تلميحا، وقد رأينا قبل ذلك تجنّب ممثّلي النخبة التونسيّة، بشقيّها العصري والزيتوني، الإشارة إلى العلاقة الوثيقة بين ممارسات المعمّر "لوسيان صال"، التي غلب عليها التعالي والاحتقار والبطش، واندلاع هذه الانتفاضة الفلاحيّة التي توفّرت لها آنذاك كلّ الشروط الموضوعيّة للتخمّر والتفجّر، من ذلك وجود الداعية الديني في فترة تميّزت بتدهور الظروف الماديّة للسكّان ارتباطا بعوامل طبيعيّة قاسية، وأخرى متعلّقة بالإجحاف الجبائي والاستعمار الزراعي.

تجاهل صاحب "الرشديّة" حوادث القصرين الدمويّة، واختار التركيز على مسيرة تالة التي لم يقم فيها المهاجمون بأيّ عمل عدواني عملا بتعليمات قائدهم الروحي عمر بن عثمان، الذي أوهمهم بأنّ قوّة خفيّة ستحارب بدلا عنهم، وستقوم بدكّ مقرّ المراقبة المدنيّة بمجرّد إشارة منهم. وكان حسين بن عثمان يهدف من وراء هذا الانتقاء إلى الحدّ من قيمة الانتفاضة ومدى انتشارها، وإبراز طابعها السلمي الذي ينفي عنها تهمة التعصّب الديني، أو الجهاد ضدّ النصارى. وقدّم بعض الأدلّة التي استند عليها لبناء هذا الموقف، فأبرز أنّ عدد المشاركين في هذه الحوادث محدود، وكذلك عدد المتورّطين أو المتّهمين. وقال إثر ذلك:

مطبعة حجريّة سمّاها المطبعة العلميّة. ولد حسين بن عثمان بقرقنة ودرس بالمدرسة الصادقيّة، واشتغل مترجما بمصلحة قيس الأراضي ثمّ قرّر التفرّغ للصحافة، فتولّى بعث الجريدة "الرشديّة" سنة 1904، وكانت ذات توجّه شعبي واضح سواء من حيث شكلها (مكتوبة بخطّ اليد) أو كذلك من حيث محتواها ونوعيّة جمهورها وعلاقتها المتوتّرة بالسلطة الفرنسيّة.

([64]) "حادث القصرين وتالة"، **الرشديّة**، 27 ماي 1906.

"ولو كان هذا الواقع حقّا لما وقع الهجوم على بلدة تالة بدون سلاح مع أنّ عرب الفراشيش غير خاليين منه (أي السلاح) للتحفّظ على حياتهم وأموالهم وحيواناتهم من بأس اليد الخبيثة لا للجهاد في سبيل الله كم ادّعاه الأوروبيّون" ([65]).

وكان حسين بن عثمان أيضا من القلائل الذين تعرّضوا إلى ضحايا الانتفاضة من الجانب التونسي، الذي كانوا خلال هجومهم على تالة في حالة أشبه بالتخمّر الصوفي، وكانوا شبه عزّل من السلاح. واستعمل في دفاعه عن هؤلاء المنطق الثقافي الغربي الذي يقوم على إعلاء حقوق الإنسان بقطع النظر عن جنسه وديانته، فيقول:

"فلو فحصنا على حقيقة هاته المعلومات لوجدنا باطنها مبنيّ على العداوة الدينيّة، والحال أنّ الأوروباويين يشيعون أنّهم لا يعتبرون الديانة أمام الهيئة الإنسانيّة، فأين الإنسانيّة التي أظهرها الأوروباويون في هذا الحادث المحزن الذي مات فيه نحو العشرة من رجال العرب الوافدين على بلدة تالة وهم يذكرون الله وليس بأيديهم سلاح يدلّ على تثوّرهم ضدّ الأجانب وقتل من لم ينطق بالشهادتين، فهل أنّ عدد المسلمين قليل حتّى أنّهم يحتاجون إلى إسلام بعض أفراد الأوروباويين فلا حاجة لإسلامهم ولا أنّ إسلامهم كرها تحصل منه النتيجة المرغوبة" ([66]).

ركّز حسين بن عثمان في مقالاته اللاحقة على نفي تهمة التعصّب الديني عن المشاركين في انتفاضة تالة والقصرين، ودخل في جدل مع المعمّرين الفرنسيين وصحفهم اليمينيّة المتطرّفة وخصوصا جريدة "تونس الفرنسيّة"، واستعرض في مقال 15 جوان 1906 بعض الحجج التاريخيّة التي تبيّن أن التعصّب الديني ارتبط تاريخيّا بالمسيحيين، مقدّما بعض الأمثلة التي تؤكّد ذلك مثل تسبّبهم في إشعال الحروب الصليبيّة، وإبادة الهنود سكّان أمريكا الأصليين وإساءتهم معاملة الأفارقة واستعبادهم، متسائلا: فمن أيّ جانب يوجد التعصّب إذن ومن أيّة جهة توجد العدالة ([67]). واصل حسين بن عثمان مجادلته لغلاة المعمّرين "المتفوّقين"، واحتجّ في مقال 17 جوان على محاولاتهم المتكرّرة لدفع الحكومة إلى التشدّد مع البدو وذلك بنزع سلاحهم مقابل تسليح المعمّرين وحمايتهم،

([65]) المصدر نفسه.

([66]) المصدر نفسه.

([67]) Guezmir, Khaled, *Jeunes tunisiens…op. cit.*, p. 73.

وكذلك على دعواتهم من أجل تسليط أقصى العقوبات على المتمرّدين من الفراشيش، مطالبا بتكريس المساواة بين الجنسين وفق ما تتضمّنه المعاهدات المبرمة بين تونس وفرنسا، والتي لا تقرّ ظاهريّا بوجود امتيازات خاصّة بالمستوطنين الذين سيطروا على أجود الأراضي، ويرغبون مع ذلك في الهيمنة على التونسيين وتجريدهم من حقوقهم مثل حقّهم في حمل السلاح لحماية ممتلكاتهم، فتوجّه إلى المعمّرين قائلا:

"يا أيّها المعمّرون ما تقصدون بإقامتكم بهذا القطر، فإن كنتم تقصدون استعمار الأراضي المتّسعة التي يعجز الأهليّون عن القيام بشؤون حركاتها ومصاريفها لتحصل لكم الفائدة فعليكم أن تلتفتوا لما هو صالح لكم من جهة حركاتكم في الأراضي المذكورة. وإن تقصدوا تملّك الأراضي مع أهاليها فذلك من المستحيل ولا يخطر ببالكم أنّ لكم حقوقا زائدة على أبناء الوطن، بل إن ظننتم ذلك فإنّكم على خطأ حيث أنّ الراية الحامية مصحوبة بالراية المحميّة وعدلها عدل واحد والحقوق متساوية" ([68]).

بيّن حسين بن عثمان في مقال آخر أنّ مطالب المعمّرين الفرنسيين بالحصول على امتيازات خاصّة لحماية أنفسهم مطالب غير مبرّرة في نظره لأنّها تحيل ضمنيّا إلى تقصير الدولة في توفير الحماية والأمن لجميع السكّان في حين أنّها تسلك في الحقيقة سياسة تمييز واضحة لفائدتهم، كما أنّهم يبالغون كثيرا في إبراز الخطر الذي يتهدّدهم من "العربان الوطنيين" المسالمين. وختم مقاله قائلا: "فوالله لو طاف المعمّرون الأقاليم الخمسة لما وجدوا أرضا كريمة مستبشرة بهم كالمملكة التونسيّة وأهلا كأهاليها يتحمّلون غلط المعمّرين" ([69]).

يتّضح ممّا تقدّم أنّ جريدة "الرشديّة" اعتمدت أسلوبا مخالفا لباقي الجرائد في إبراز موقفها من انتفاضة تالة والقصرين، وقد تميّز هذا الأسلوب بالبساطة والوضوح وبطابعه المباشر البعيد عن التكلّف والتزلّف، إضافة إلى ما تميّز به من جرأة في الطرح وتبنّي بعض المواقف المحرجة بالنسبة إلى جلّ عناصر النخبة التونسيّة آنذاك. أمّا من حيث المضمون، فقد ركّزت الجريدة على نقطة أساسيّة وحيدة وهي الردّ على ادّعاءات

([68]) "تعصّب المعمّرين ضدّ العربان"، **الرشديّة**، 17 جوان 1906.

([69]) "غلط المعمّرين"، **الرشديّة**، 24 جوان 1906.

المعمّرين الفرنسيين الذين حاولوا إبراز خطورة الانتفاضة واكتسائها بطابع التعصّب الديني الذي يستهدف وجودهم بالبلاد التونسيّة، وكانت تهدف من وراء ذلك إلى الدفاع عن الأهالي وتبرير قيامهم بهذه الانتفاضة مبرزة تعاطفها معهم ومتجنّبة الخوض في ما صدر عنهم من أعمال قتل ونهب خلال اليوم الأوّل من الانتفاضة. ولئن تجنّبت الجريدة قدر الإمكان انتقاد السلطة الفرنسيّة، فإنّها كانت على وعي بتقصيرها في حقّ التونسيين واعتمادها سياسة موجّهة بالأساس لحماية مصالح المعمّرين الفرنسيين، وهو ما يتّضح من خلال تعليقها على مآل القضيّة قبل يوم من صدور الأحكام النهائيّة فيها، إذ تقول: "إنّ الحكم على هؤلاء العربان المساكين نحو 59 رجلا صار من المعلوم لدى كلّ مسلم في القطر التونسي وخارجه نظرا للأحكام التي صدرت بالإعدام والأشغال الشاقّة على غيرهم في نوازل طفيفة لا نسبة ولا مناسبة بينها وبين نازلة تالة المذكورة سيّما وأنّ الطالب هو الحاكم وفي ذلك كفاية" ([70]).

ثالثا – موقف حركة "الشباب التونسي" الناشئة من الانتفاضة:

1- إشارات محمد الأصرم للانتفاضة في مؤتمر مرسيليا (سبتمبر 1906):

شارك محمد الأصرم في مؤتمر مرسيليا الاستعماري (5- 9 سبتمبر 1906) ضمن الوفد الحكومي التونسي بصفته مدير إدارة الغابة. وقدّم خلال المؤتمر عدّة تقارير ومداخلات، نذكر منها بالخصوص مداخلته حول "الإسلام والطرق الدينيّة بالبلاد التونسيّة"، وكانت على صلة واضحة بانتفاضة الفراشيش، التي تنسب خطأً إلى الجامعة الإسلاميّة حسب ما ذكرت إحدى المجلات الفرنسيّة ([71]).

بيّن محمّد الأصرم أنّ سكّان البوادي والأرياف يجهلون التعاليم الحقيقيّة للدين الإسلامي، ولا يحملون سوى بعض مظاهر التديّن الشكلي والسطحي، ويعانون علاوة على ذلك من الأميّة، لذلك نجدهم يتأثّرون بسهولة بدعوة أحد الأولياء حين يدعوهم لشنّ الحرب ضدّ المسيحيين. ويقول: ليس الدين الإسلامي هو الذي يهدّد الهيمنة الفرنسيّة في

([70]) ورد في: الزيدي، علي، "انتفاضة الفراشيش سنة 1906، **المجلّة التاريخيّة المغاربيّة**، عدد 49-50، 1988، ص. 154- 155.

([71]) Lasram, Mohammed, « L'islam en Tunisie : son état actuel ; le rôle des confréries », *La Quinzaine coloniale*, nos 19 et 20, 10 octobre et 25 octobre 1906.

البلاد الإسلاميّة بل الجهل بتعاليم هذا الدين. ويرى أنّ الحلّ لتجنّب حصول كارثة من هذا النوع يتمثّل في نشر التعليم العصري، وفي انتظار ذلك يمكن القيام بالإجراءات التالية:

– نشر التعليم العربي القائم على المبادئ الإسلاميّة في كلّ القبائل والمراكز التي تفتقر إلى التعليم الفرنسي.

– تحسين الأوضاع الماديّة للتونسيين، وذلك من خلال تطوير الفلاحة والاهتمام بالتجارة والصناعة الحرفيّة.

– تكفّل المدارس المهنيّة، إضافة إلى مهّمتها الأصليّة، بنشر قيم الخير والتعاون والتضامن الإنساني والتسامح، وهي قيم مستمدّة من تعاليم الإسلام ([72]).

ركّز محمد الأصرم في الجزء الثاني من مقاله على الطرق الدينيّة، فتحدّث عن نشأتها وتحوّلها من الطابع الفلسفي إلى الطابع السياسي، ثمّ تعرّض إلى تنظيمها وخصائصها مبيّنا مسؤوليّتها الكبيرة في تخلّف المسلمين والعالم الإسلامي وفي تأبيد واقع الجهل والفقر والخضوع. ودعا السلطة الفرنسيّة إلى الحذر ومراقبة هذه الطرق الدينيّة، والسعي إلى الحدّ من نفوذها. ويكون ذلك بنشر التعليم بمختلف درجاته في صفوف جميع الطبقات الاجتماعيّة، معتبرا أنّ التعليم المجاني والإجباري هو الكفيل وحده بضرب الطرق الدينيّة، وبالتّالي إبعاد شبح الحرب المقدّسة ([73]).

تكشف لنا هذه المداخلة بصفة جليّة أهمّ ثوابت حركة الشباب التونسي، وهي النضال في سبيل نشر التعليم العصري من جهة، ومقاومة الطرق والزوايا الدينيّة من جهة أخرى، وتمّ توظيف هذه المبادئ لتمرير موقف الحركة، والنخب العصريّة عموما، من انتفاضة الفراشيش التي تجسّد مثالا لحركة انتفاضيّة نابعة من المجتمع التقليدي، كما تمّ استغلال هذه الانتفاضة التي اكتست بطابع التعصّب الديني للتذكير بمطالب النخبة التونسيّة العصريّة، التي طرحت على نفسها مهمّة الدفاع عن مصالح التونسيين وتمثيلهم والسعي إلى تحسين أوضاعهم. ولم تتضمّن مداخلة محمد الأصرم، تماما مثل تصريح البشير

([72]) *Ibid.*
([73]) *Ibid.*

صفر المذكور أعلاه، أيّة إشارة إلى الطابع السياسي والوطني لانتفاضة القصرين وتالة، ويرتبط ذلك بداهة بطبيعة حركة الشباب التونسي الإصلاحيّة والمعتدلة، والتي كانت تتبنّى منذ بداية تشكّلها سياسة "المشاركة" والتقارب بين العنصرين التونسي والفرنسي، وكان رموزها يخشون كلّ ما يمكن أن يعرقل تحقيق برنامجهم وأهدافهم، ويحاولون تقديم رسائل مطمئنة للرأي العام الفرنسي.

2- علاقة الانتفاضة بأفكار "الجامعة الإسلامية" حسب عبد الجليل الزاوش:

هو الأكثر نفوذا وشهرة من بين الشبّان التونسيين الذين تعلّموا في مدارسنا (ليسي كارنو وكليّة الحقوق بباريس)، وتشبّعوا كليّا بالثقافة الأوروبيّة، وقد كرّس حياته لفائدة النهوض الاقتصادي بأبناء بلده، هكذا قدّمت جريدة "لوطون" الباريسيّة الشهيرة عبد الجليل الزاوش الذي وجّه إليها رسالة توضّح موقفه من موضوع كان يثير جدلا كبيرا في ذلك الوقت، وهو الخطر الإسلامي المرتبط برواج أفكار "الجامعة الإسلاميّة" في شمال افريقيا ([74]). بيّن الزاوش في مفتتح رسالته أنّ الموضة الغالبة آنذاك على الصحافة الأوروبيّة وخصوصا الانكليزيّة والفرنسيّة هي الحديث عن الجامعة الإسلاميّة ويقظة الإسلام، وذلك ارتباطا بتداعيات حادثة "دانشواي" في مصر (جوان 1906) ([75]).

رفض عبد الجليل الزاوش جملة وتفصيلا هذه الادّعاءات التي تهوّل خطر اليقظة الإسلاميّة، فبيّن أنّ المسلمين غير متّحدين ولا يشكّلون مجموعة متجانسة، ولا يربط بينهم أيّ اتّفاق أو برنامج مشترك، ولا يملكون أصلا القدرات الماليّة والعسكريّة للتفكير في السيطرة على العالم. وذكر بالمقابل أنّ الشعوب تظهر في كلّ دولة إسلاميّة، حسب موقعها الجغرافي ونظامها السياسي، حاجتها الملحّة إلى إنجاز تطوّر يساعدها على تحسين أوضاعها، وهذا التطوّر الطبيعي الذي فرضه الاحتكاك بالأجنبي لا يتم تمثّله بنفس الطريقة. وخلص إلى أنّ الحركة الاحتجاجيّة التي تشهدها مصر هي حركة مصريّة

([74]) Zaouche, Abdeljelil, « Le Panislamisme et les musulmans u nord de l'Afrique », *Le Temps*, nº 16622, 25 décembre 1906.

([75]) دانشواي: قرية مصريّة تابعة لمحافظة المنوفية غربي الدلتا، وقعت فيها في جوان 1906، حوادث دمويّة بسبب اعتداء بعض الضبّاط الانكليز على أعيان القرية، وخلّفت مقتل ضابط انكليزي وعدّة مصريين. تلت ذلك محاكمة مشدّدة لبعض المصريين وإعدام 4 منهم، واستغلّها الحزب الوطني بقيادة مصطفى كامل للقيام بدعاية واسعة والحصول على تأييد خارجي كبير.

وليست حركة إسلاميّة، غير أنّ الانكليز وجدوا مصلحتهم في الادّعاء بأنّ الأمر يتعلّق بحركة تعصّب ديني يشمل كلّ المسلمين ويهدّد كلّ الأوروبيين، فأشاعوا "أنّ الهياج الإسلامي وصل إلى الجزائر وتونس، وهو أمر غير صحيح" ([76]).

أكّد عبد الجليل الزاوش أنّ التونسيين والجزائريين يمكن أن يتبنّوا نفس المطالب السياسيّة التي يطالب بها المصريّون بقيادة مصطفى كامل، ولكنّهم لا يفعلون ذلك بوصفهم مسلمين، أو من باب التضامن الإسلامي، لأنّهم يعرفون جيّدا وضعيّة مصر بالنسبة إلى الانكليز كما يعرفون وضعيّة بلديهما بالنسبة إلى فرنسا. وأعلن أنّ النخب التونسيّة المثقّفة تقبل بكلّ وضوح وإخلاص الحماية الفرنسيّة، وتثمّن إيجابيّاتها رغم كلّ الأخطاء المرتكبة، وأنّ طموحها الوحيد على المستوى السياسي هو المساهمة في النهوض بالتونسيين ثقافيّا وأخلاقيّا بمساعدة فرنسا. وقدّم قراءة تعبّر عن وجهة نظر حركة الشباب التونسي الإصلاحيّة، وتمتزج فيها الأهداف بالحلول، فقال: "فإذا سعينا إلى إرجاع الدين إلى مبادئه الحقيقيّة، وإذا قاومنا الطرق الدينيّة التي شوّهت تعاليم الإسلام وعملت على إبقاء الأرياف في الجهل المطبق، فإنّنا نهدف من ذلك إلى إبراز عدم التعارض بين الدين والعلم. وإذا طالبنا بنشر التعليم في صفوف الأهالي، وإذا طالبنا بفتح أبواب التعليم المهني والفلاحي أمامهم، فذلك لأنّنا نعتبر هذه المسائل حيويّة وأكيدة" ([77]).

قدّم بعد ذلك أمثلة ملموسة تؤكّد أنّ تمسّك التونسيين بهذه المطالب لا علاقة له بالجامعة الإسلاميّة والتعصّب الديني، وخلص في الأخير، وهذا الذي يهمّنا أكثر، إلى إبراز رؤيته لانتفاضة القصرين وتالة، فقال:

"وأخيرا هل من الإنصاف أن نرجع حوادث "مارغريت" (الجزائر 1901) وتالة إلى تأثير الجامعة الإسلاميّة؟ وهل يمكن اعتبار الأعمال المشينة، التي تجعل بعض المتعصّبين والدجّالين يؤثّرون على العقول البسيطة، حركة دينيّة؟ في اليوم الذي يتمّ فيه فرض التعليم الإجباري في شمال افريقيا لن نرى بعض البدو المسلمين يمتصّون لسان (الوليّ) يعقوب مثلما حدث في "مارغريت"، أو يتأثّرون بترّهات أمثال عمر بن عثمان

([76]) Zaouche, Abdeljelil, « Le Panislamisme…*op. cit.*
([77]) *Ibid.*

كما وقع في تالة". وبيّن أنّ انتشار التعليم والأفكار التنويريّة في الأرياف والبوادي كفيل بالقضاء على هؤلاء المتعصّبين صنائع الطرق الدينيّة التي يرفضها كلّ مسلم متعلّم، وأنّه لا وجود لخطر يوحي بتفجّر المشاعر الدينيّة في تونس والجزائر، وكلّ ما في الأمر أنّ الصحافة الفرنسيّة أخذت مثال الصحافة الانكليزيّة في ربط كلّ حركة احتجاجيّة، وكلّ مسعى تنويري، بشبح الجامعة الإسلاميّة ([78]).

تكتسي هذه الرسالة أهميّة بالغة، إذ حاولت توضيح موقف النخبة التونسيّة المثقّفة من الاتّحاد الإسلامي، وإبراز رفضها للتعصّب الديني المرتبط بالطرق والزوايا الدينيّة، وذلك مع التعريف بأهمّ المبادئ الإصلاحيّة المعتدلة لحركة الشباب التونسي الناشئة، وبأهمّ مطالبها الموجّهة إلى النهوض بالتونسيين وتحسين أوضاعهم الماديّة والمعنويّة. وجاءت رؤية عبد الجليل الزاوش لانتفاضة تالة مرتبطة بثوابت الحركة وبمبادئها، إذ تعتبرها حركة معزولة لا علاقة لها بأفكار الجامعة الإسلاميّة، تكمن أسبابها العميقة في تفشّي الأميّة في الأرياف التونسيّة، وغياب الفهم الصحيح لتعاليم الإسلام، وهيمنة الطرق والزوايا الدينيّة التي تجد في ظلّ هذا الواقع بيئة خصبة للنشاط والتأثير، ومن هنا تمثّل قضيّة نشر التعليم أولويّة مطلقة بالنسبة للنخبة الحضريّة العصريّة.

3- جريدة "التونسي" تختار غلق ملف الانتفاضة:

لم يكن لحركة الشباب التونسي موقف رسميّ واضح من الانتفاضة ([79])، وهو أمر طبيعي لأنّ الحركة لم تظهر بصفة فعليّة ورسميّة إلّا في بداية شهر فيفري من سنة 1907 مع ظهور جريدة "التونسي" « Le Tunisien ». وعلى الرغم من صدور هذه الجريدة بعد أقلّ من شهرين عن محاكمة المشاركين في انتفاضة تالة والقصرين، فإنّها اختارت السكوت عن إثارة هذه القضيّة باستثناء بعض التلميحات القليلة، ونذكر منها:

– نشرت الجريدة في عددها الرابع التقرير الذي أعدّه النائب الراديكالي بالبرلمان الفرنسي "أدولف بيدوبيدو" « Adolphe Pédebidou » حول الوضع بالبلاد التونسيّة غداة انتفاضة الفراشيش، ودعا فيه فرنسا إلى اعتماد سياسة إسلاميّة قائمة على النهوض بالأهالي في إطار احترام مقدّساتهم الدينيّة، وتدعيم التعاون مع النخبة الحضريّة

---

(78) *Ibid.*

(79) التيمومي، الهادي، **انتفاضة القصرين...نفس المرجع**، ص. 188.

المثقّفة التي تتميّز بالتفتّح والاعتدال والتسامح، وهي تعاليم مستمدّة من قيم الإسلام الصحيحة التي يروّج لها جامع الزيتونة. وذكر أنّ أحداث تالة كشفت أنّ انتشار الجهل بهذه التعاليم، والاقتصار على المظاهر الشكليّة للتديّن، جعلت بعض الأهالي الأميين يسقطون تحت تأثير الوليّ المتعصّب عمر بن عثمان. ورأى في الأخير أنّ التونسيين مؤهّلين للتطوّر ومواكبة العصر عكس ما تروّج له الصحافة اليمينيّة، مطالبا بتشريكهم في إدارة البلاد ([80]). وسنرى أنّ هذا الموقف من الانتفاضة يتطابق تماما مع مواقف مختلف رموز حركة الشباب التونسي.

– هنّأت الجريدة في عددها الخامس عبد السلام قعيّد "خليفة" تالة، وذلك بعد حصوله على وسام جوقة الشرف الفرنسي تكريما له على ما قام به خلال انتفاضة الفراشيش، واعتبرت أنّ هذا القرار يضع حدّا لادّعاءات الصحافة الفرنسيّة بتونس ولتحاملها على الموظّفين التونسيين بدعوى أنّهم متورّطون جميعا في أحداث تالة ([81]).

الخاتمة:

حاولنا من خلال هذا الجرد استقصاء مواقف النخب من انتفاضة تالة والقصرين، ولم يكن غرضنا الوصول إلى إطلاق حكم أو تثبيت آخر، أو دحض تهمة، وإنّما كان مطمحنا فهم خطاب هذه النخبة حول حدث تاريخي مهمّ في سياق تاريخي محدّد، وكشف الآليّات المتحكّمة فيه والظروف التي أنتجته.

اتّضح لنا أنّ هذا الخطاب يحيل إلى مفارقات عديدة، فهو متعدّد ومتجانس في ذات الوقت، إذ لا أحد من عناصر هذا النخبة تعاطف بصفة واضحة مع هذه الانتفاضة ودافع عنها أو تبنّاها. وهو خطاب ضبابي وحمّال أوجه عدّة، وهو موغل في مهادنة السلطة الاستعماريّة ويطرح على نفسه تقديم الحلول الجذريّة لتفادي تكرّر الحدث. وهو يتميّز بالتعالي بل بالعداء تجاه البدو والأرياف يعبّر عن رؤية متأصّلة في النخب الإصلاحيّة التونسيّة منذ عهد الروّاد، ولا يخلو مع ذلك من بعض التعاطف معهم. وهو رجعي ومحافظ عندما يتجنّب التأكيد على الجانب الوطني للانتفاضة، وتنويري عقلاني

---

(80) « Le rapport de M. Pédebidou », *Le Tunisien*, nº 4, 28 février 1907.
(81) - *Le Tunisien*, nº 5, 7 mars 1907.

عندما يركّز على محاربة الزوايا والطرق الدينيّة ويعطي الأولويّة لمقاومة الأميّة ونشر ثقافة التسامح.

تبنّت هذه النخب رؤية توفيقيّة معتدلة حذرة ومتّزنة، واضطرت إلى استنباط استراتيجيّات مختلفة للتمويه. وعندما اندلعت حوادث "دانشواي" بمصر، أصبحت القضيّة الأساسيّة تتلخّص في الحديث عن يقظة إسلاميّة منظّمة في إطار الجامعة الإسلاميّة، وأصبحت تهمة التعصّب الديني تتّخذ أبعادا أكثر خطورة من مجرّد حركة محليّة. إلّا أنّ رموز النخبة التونسيّة تصدّوا لهذه الفكرة، وبيّنوا أن لا علاقة بين حادثة الفراشيش والاتّحاد الإسلامي، وأنّه لا وجود لخطر التعصّب الإسلامي في البلاد التونسيّة، وبيّنوا أنّ نشر المدارس والتعليم المهني بالأرياف والبوادي هو الحلّ الجذري لتحسين وضعيّة الأهالي وللحدّ من تأثير الأولياء والطرق الدينيّة في صفوفهم. وبعد أن كانوا يلمّحون إلى أنّ الانتفاضة وقعت بسبب سوء معاملة بعض المعمّرين لأهالي الفراشيش، أصبحوا يعتبرون أنّ انتشار الأميّة ومظاهر التديّن السطحي، وغياب التعاليم الصحيحة للإسلام، هي العوامل التي مهّدت لهذه الانتفاضة التي اكتست شكل التعصّب الديني.

وعموما فإنّ موقف النخب التونسيّة من هذه الانتفاضة يعكس طبيعة هذه النخب الحضريّة وأصولها ومرجعيّاتها وقيودها، فهي في جوهرها نخب إصلاحيّة معتدلة وبراغماتيّة، متشبّعة بالثقافة الغربيّة ومتمسّكة بالقيم الإسلاميّة الزيتونيّة، ترنو إلى النهوض بالتونسيين وتشريكهم في إدارة بلادهم في إطار نظام الحماية.

د. فوزي السباعي
كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بصفاقس
مخبر LERIC